شعر البارودي في منفاه

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

كان البارودي في أوّل عهده بالنفي متحفزاً متوثباً ، بل كان ثائرا مهددا ، يرى أنه لم يقترف ما يستحق النفي من أجله ، غير أنه دافع عن دينه وعن وطنه ، وليس ذلك ذنبا يستحق أن يحاسب عليه ويغترب ، وهو لذلك غير نادم على ما قدّم ، وغير خاطىء فيما فعل ، وحسبك أن تقرأ هذه الأبيات لترى فيها الثورة النفسية العنيفة :

ومن عجائب ما لاقيت من زمني ... أني منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زلّة تقضي علىّ بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحرب
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلما وأغترب
فلا يظن بي الحساد مندمة ... فإنني صابر في الله محتسب
أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت ... أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
إني امرؤ لا يرد الخوف بادرتي ... ولا يحيف على أخلاقي الغضب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة ... إذا تخرص أقوام وإن كذبوا

بل إن شعره الذي قاله في تلك الفترة الأولى ليدل على أنه كان يؤمّل قيام ثورة تعيد إليه مجده ، وكان قوي الثقة في أن أنصاره سيرغمون خصومه بقوة السيف على أن يعود البارودي إلى السلطة التي ترضاها العلا ، نرى ذلك حين يقول :

فحتّام نسري في دياجير فتنة ... يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت ... عليه ، فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته ... أضر عليه من حمام يؤدّه
وأقتل داء رؤية المرء ظالما ... يسيء ويتلى في المحافل حمده

نظراته الخيالية وهي اعتبارات فيلسوف لا سياسي ولا مشترع(1) لكن الدكتور يقول : « نحن نؤيد هذا القول بشواهد في التاريخ ، معتمدين على النظر إلى تطور الإنسانية خلال العصور الطويلة » والبحث في هذه الشواهد وهذا النظر مؤخّر إلى عدد آت

محمد توفيق السلودار

(1) من « تاريخ الأدب العربي » لصاحبه ك . هيار (Clément Houart) .

علام يعيش المرء في الدهر خاملا ... أيفرح في الدنيا بيوم يعده
وإني امرؤ لا أستكين لصولة ... وإن شد ساقي دون مسعاي قيده
ولا بد من يوم تلاعب بالقنا ... أسود الوغى فيه وتمرح جرده
يمزق أستار النواظر برقه ... ويقرع أصداف المسامع رعده
تدير أحكام الطعان كهوله ... وتملك تصريف الأعنة مرده
قلوب الرجال المستبدة أكله ... وفيض الدماء المستهلة ورده
أحل صدر النصل فيه سريرة ... تمد لأمر لا يحاول رده
فإما حياة مثلما تشتهي العلا ... وإما ردى يشفي من الداء وقده

غير أن الانتظار قد طال ولم تصل إليه أنباء تقوى فيه هذا الأمل ، فسمعناه يستنجز الوعد ، ويحث الصحب قائلا :

فيا سراة الحي ما بال نصرتكم ... ضاقت علىّ وأنتم سادة نجب
أضعتموني وكانت لي بكم ثقة ... متى خفرتم ذمام العهد يا عرب

والبيت الثاني يحمل كل معاني الألم وخيبة الأمل .

وقد اختلفت بذلك نظرته إلى السيف ، فبعد أن كان يهدد بامتشاق الحسام ، وشن الثورة على الخصوم ، رأى — وقد خذله ناصروه — أن سيفه ليس له غناء في يده ولا قيمة ، ولننصت إلى ما دار بين الشاعر وسيفه من حديث حين قال :

ولا صاحب غير الحسام منوطة ... حمائله مني على عاتق صلد
أقول له والجفن يكسو نجاده ... دموعا كرفض الجمان من العقد
لقد كنت عوناً لي على الدهر مرة ... فما لي أراك اليوم منثلم الحد
فقال : إذا لم تستطع سورة الهوى ... وأنت جليد القوم ما أنا بالجلد
وهل أنا إلا شقة من حديدة ... ألح عليها القين بالطرق والحد
فما كنت لولا أنني واهن القوى ... أعلق في خيط وأحبس في جلد
فدونك غيري فاستعنه على الجوى ... ودعني من الشكوى فداء الهوى يعدي

فهذا السيف الذي كان سبب مجده الحربي يراه الآن قطعة من الحديد ضعيفة واهنة القوى ، لا تستطيع أن تقدم له يدا ، ولا أن تساعده .

لم تنزل بالبارودي نفسه فيلحف في الاعتذار ، ويلح في الاسترحام كما فعل سواه ، ولعله طلب أن يعود إلى وطنه موفور الكرامة ، متبرئاً من تهم ألصقها به حاسدوه ، كما يمكن أن نلمح ذلك في قوله :

يا غاضبين علينا ، هل إلى عدة ... بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
قد كنت أحسبنى منكم على ثقة ... حتى منيت بما لم يجر فى بالى
لم أجن فى الحب ذنباً أستحق به ... عتبا ، ولكنها تحريف أقوال
ومن أطاع رواة السوء نفره ... عن الصديق سماع القيل والقال

ولكن شعره الثائر وما عرف عنه من حب المجد والسعى إلى العلا ، لم يكونا مما يدفع ولاة الأمر إلى الصفح عنه والمغفرة ، فاستسلم إلى حكم القدر ، وسلم نفسه لله ، ولجت به الرغبة فى زيارة الرسول الكريم ، وأنشأ الشعر فى مدح النبى والثناء عليه ، ولكنه مع ذلك لم يسل يوما مجده ووطنه ، بل أخذ يبث شعره شوقه إلى ملاعب شبابه وصباه ، وما كان له من سلطان وجاه ، فهو لا ينفك ذاكرا الماضى مشتاقا إليه ، يحن إلى ملاعب الروضة وحلوان ، وكان كلما تقدمت به السن ، خلف الشباب وراءه ، فتلفت يبكى هذا العهد السعيد الذى قضاه فى وطنه ممتعاً بالأهل والأصدقاء والأحباب والسلطان ، ويوازن بينه وبين ما صار إليه من ضعف وهوان ، وقد وصف هذه النفسية القلقة المشتاقة حين قال :

أحن إلى أهلى ، وأذكر جيرتى ... وأشتاق خلانى وأصبو لمألفى
فلا أنا أسلو عن هواى فأنتهى ... ولا أنا ألقى من أحب فأشتفى

أو حين تحدث فى لهفة وشوق قاتل إلى النيل قائلا :

فهل نهلة من جدول النيل ترتوى ... بها كبد ظمآنة ومشاش

أو حين يذكر الماضى متأسفا على حاضره :

لله أيام بهم سلفت ... لو أنها بالوصل تأتنف
إذ لمتى فينانة ويدى ... فوق الأكف وقامتى ألف
أجرى على إثر الشباب ولا ... يمشى إلى ساحاتى الجنف
إن سرت سار الناس لى تبعاً ... وإذا وقفت لحاجة وقفوا
فالآن أصبح طائرى وقعاً ... بعد السمو وصبوتى أسف

بل لقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح يتمنى العودة إلى الوطن ولو عاش فيه فقيرا مملقاً .

أما حزنه على الشباب وبكاؤه عليه وألمه من الشيب وما ناله فيه من الضعف ففى كثير من قصائد منفاه ، وها هو ذا يصور لنا نفسه فى غربته شيخاً أخلق الشيب جدته ، ولوى شعر حاجبيه على عينيه ، وضعف بصره فصار يرى الشىء كأنه خيال ، وإذا دعى لم يتبين مصدر الصوت ، وإن أراد النهوض قعد به الضعف فلا يستطيع .

كيف لا أندب الشباب وقد ... أصبحت كهلا فى محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتى وكسانى ... خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على عينى ... حتى أظل كالهداب
لا أرى الشىء حين يسنح إلا ... كخيال ، كأننى فى ضباب
وإذا ما دعيت حرت كأنى ... أسمع الشىء من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتنى ... ونية لا تقلها أعصابى

كان البارودى كثير التأمل فى حوادث حياته ، ما مضى منها وما حضر ، وكثيراً ما كان يفكر فيما آل إليه أمره ، فيسلى نفسه حيناً بأن الحظ يلعب دوراً كبيراً فى النجاح ، ولا ذنب له إن جافاه الحظ فلم ينجح ، وحيناً يعود باللائمة على الحياة الدنيا ، فهى لئيمة قلب ، لا تحسن اليوم إلا لتسىء غداً ، وأحياناً يسوق الأمثال والحكم ليجلى إلى نفسه الهدوء والراحة ، فالسيادة لها تكاليفها والمغامر تقوى هموم قلبه ، وطالب العلا يعرض نفسه للحلو والمر إلى غير ذلك ، مما تجده منثوراً فى قصائد منفاه ، وإذا ذكر ثروته وكيف جرد منها قال :

أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت ... أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفساً وهى عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب

وكان يسبغ على نفسه الرضا والطمأنينة راحة ضميره وإيمانه بأن سيرته ليس فيها ما يزرى أو يغض من قيمته :

راجعت فهرس آثارى فما لمحت ... بصيرتى فيه ما يزرى بأعمالى

وأنه لم يبع ضميره بالمال ولم يفرط فيما يعتقد أنه واجب عليه ، مؤمناً بأن التاريخ سينصفه ، وسوف يبين الحق يوماً للناظرين ، قال فى إحدى قصائده :

ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة ... لصبحنى قسط من المال غامر
ولكن أبت نفسى الكريمة سوأة ... تعاب بها والدهر فيه المعاير
وسوف يبين الحق يوماً لناظر ... وتنزو بموراء الحقود السرائر

كان نفى البارودى إلى جزيرة سيلان ومعيشته بين القوم الذين وصفناهم له هذا الأثر الحزين فى كل شعره الذى قاله فى منفاه ، ولم تستطع طبيعة هذه البلاد ــ وقلبه ملىء بالحزن والأسى ــ أن توحى إليه بشعر فرح إلا قصيدة واحدة يصف فيها روضة بكندى ، ويوماً قضاه مع رفقة بتلك الروضة ، وتلمح